التيار النفسي

في شعر قاسم الوزير

دراسة تحليلية

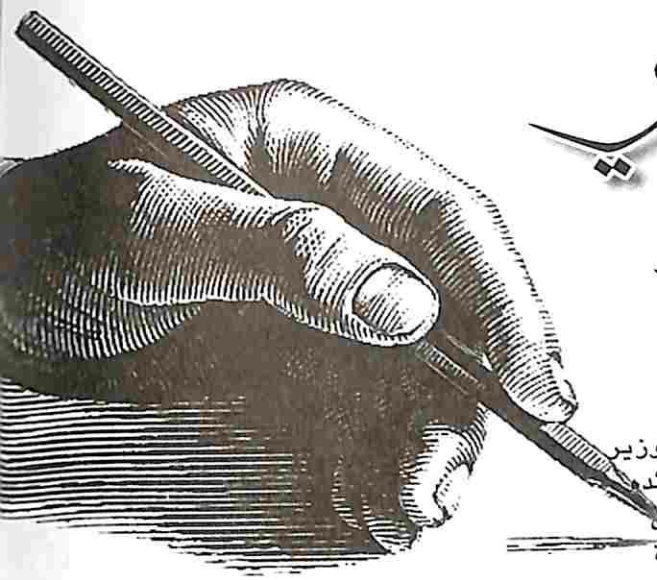

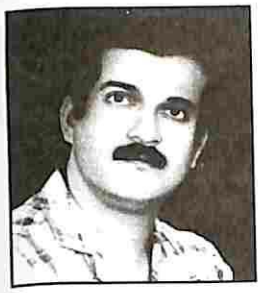

التيار النفسي في شعر الشاعر اليمني الأستاذ قاسم الوزير يشكل القاسم المشترك الأعظم في شعره ، ففي أعماق قصائده ينبض هذا التيار ويتدفق بعميق الشعور ،فالشاعر إنسان غارق في بحر الغربة جبراً واختياراً ، صقلت معدنه الهجرة المستديمة والتجربة المريرة ، ورسخت في أعماق مشاعره قضايا الإنسان المسلم ومآسيه المستمرة ، فتوحّد معها ولكنه لم ينهزم ، وإنما انطلق كالنجم يبشر بالنور القادم في سماء مظلمة !

د.محمد أبوبكر حميد
- السعودية -

ويُنوّر درباً ...لن يُظلم
ويصيح بنورٍ يتكلم :
ها .. إن الليلَ يشيخ
هرماً أضحى
هرماً لن يبقى
وتأوهت الظلمة
وتراخت كالرمة

*** الكلمة المطربة والكلمة الضاربة :**

وتتكرر صورة الليل والظلام في شعر قاسم الوزير لترمز إلى معاناة الإنسان المسلم في هذا العالم الذي لا تزال تتحكم فيه قوى الظلام . فالليل يتحول إلى قصيدة « ثرثرة في غسق الليل » إلى غول قبيح يملأ الدنيا ظلاماً وظُلماً لا يستطيع فيه الإنسان أن يتعرف على أي درب يسير حتى ليكاد إنسان هذا الزمان يشك إن كان الظلام في هذه الدنيا أو هذي العين :

لكن ملء عيونَي ظُلْمة
أحملها أني سرت وأني جئت
وأرى الأشياء بها عتمة
أبعيني أم في الأشياء الظلمة ؟!

ثم تكون مجاهدة « غول الظلام » فيقول الشاعر إنه سيصرخ في وجه الليل وينشب فيه أظفاره ، ونجد أن الصراخ لا ينبع من الخوف أو الاستغاثة وإنما من محاولة إرهاب هذا الجبل المظلم الجاثم على صدر الأمة ، وبالتالي فنحن نراه ينشب في وجه الليل أظفاره ، كناية عن صدق النية في بذل الجهد . ولكن ماذا عسى أن تفعل الأظافر في وجه جبل من ظلام ؟ إنها ترمز إلى جهاد قوم لا سلاح لهم إلا أيديهم ، ولا نصير لهم إلا الله ، وهذا بصدق كان يرمز إلى ثورة الحجارة التي تلقيها الأيدي المؤمنة في وجوه « بني إسرائيل » .. « **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** » ، وتصديقاً لكلام الله نجد الشاعر يقول إن جهد الأظافر قد « يحفر في جبل الليل مجازاً للنور » . ولكن « مجاز النور » بحاجة إلى « حماية » لأن ثمرة النصر تضيع إذا لم تستثمر فمن لها ؟ لذلك كأني بالشاعر يستنهض الهمم للعمل في أمة عانت طويلاً من « الخطباء » و « شعراء فرعون » الذي أصبح فيما بعد :

جهد كالعبث الضائع
ماذا في وسع الكلمات ووسع الشعر ؟
أطفأت الريح المصباح وجف الكأس
خمدت نار السمّار
هجر اللحن الأوتار
صمت المزمار
صمت المزمار
وانفض السامر في الحي .. انفضّ الناس

نعم .. كأني بالشاعر يقول إن السامر سينفض عن خطباء « الكلمة المضربة » لأنهم اكتشفوا أنها ليست إلا « كلمة مُطربة » وأنهم سيتحولون إلى أصحاب « الكلمة الضاربة » « الكلمة الفعل » التي تتحول في حينها إلى عمل ، ونعم أجر العاملين .

رموز على حاشية الأفق :

ولعله من المفيد الآن أن نتوقف وقفة متأنية لنتأمل أجود قصيدة قرأتها للشاعر قاسم الوزير ، قصيدة بعنوان « رموز على حاشية الأفق » لأننا نجد أن الحديث عن الغربة في الزمان ، والاغتراب في المكان ، همٌ ضاغط يشحن أجواء القصيدة بالمشاعر وبالمعاناة ، ويجد فيها الفرد منا همومه منعكسة بصدق في الصورة الشعرية . وهنا تحل الألفة النفسية بين القارىء وقصائد الغربة والاغتراب ، ومن خلال هذا التيار النفسي المشترك يوجد التلاحم بين الشاعر والأمة التي تُعبر عنها .

وأهم ما يُميزُ هذه القصيدة في رأينا هو أنها لا تقوم على صورة هلامية ، لا معقولة ، أو مادية ، وإنما تقوم أكثر ما تقوم على صور توحي بالجو والرمز الذي يُشكل البناء ويُبدع اللحن المميز للقصيدة . فالجملة الشعرية قصيرة ، والكلمات ذات دلالة وإيحاء وظلال ترسم الصورة الشعرية بدقة وعمق تتسرب إلى مداخل النفس . فمضمون القصيدة وصورها الشعرية التي تلوح قاتمة لاتصور حالة يأس كما قد يبدو لقارىء القصيدة للوهلة الأولى ، ولكنها ترسم حالة من « الإحباط » خلال محاولة مستمرة من « الشروع » لتجاوز هذه الحالة . « فاليأس » ربما يكون حالة مستديمة ، لكن « الإحباط » حالة ضمن سلسلة تجربة النجاح والفشل ، حالة نمر بها عندما لا تعطينا الحياة كل ما نريد أو عندما لا يجود الزمان بما كنا نرجو ، لكننا بعدها لا نتوقف ولا نيأس وإنما نستمر نأمل .. لا نحلم في الفراغ ، ونعمل لا ننام من اليأس ، ومن هنا يأتي الكثير من شعر قاسم الوزير تعبيرا عن حالة « الانسان المسلم » في مواجهة عصره وأزماته ، العصر الذي خُذل فيه هذا الإنسان حينما أضاع « هويته » الأصيلة وركض في متاهات الظلام خلف هويات غريبة عنه .

ففي قصيدة « رموز على حاشية الأفق » يتركز هذا المعنى في ثلاث لوحات . كل لوحة تشكل عالما مستقلا بذاته ، لكن هذه « العوالم » جميعا ترتبط في النهاية « بالجو النفسي » العام الذي توحي به القصيدة . فاللوحة الأولى عالمها داخلي نفسي يقوم على « الخواطر » . ولما كان « عالم النفس » دوماً في حالة غير مستقرة بالمثل تأتي الصورة الشعرية التي تبدو في « حالة شروع » أو في صورة « فعل » غير مكتمل . لكن عدم الاكتمال في الصورة لا يأتي طبيعيا ، وإنما هو بفعل فاعل . وهنا تبدو مأساوية الصورة الشعرية حين نكتشف أن شيئا ما جعل الخواطر « مقصوصة » ورغم ذلك « القص » تكون في « حالة شروع » حين « تهم » أن تطير لكنها لا تستطيع :

خواطري مقصوصة الجناح
تهم أن تطير
ترتاد عالما ما اكتحلت بمثله العيون
ما حملت إليه ، شاعراً ، رياح ..
ولم تزل تحاول المحال ...

هنا ، ضمناً ، نكتشف السر الذي من أجله قُطعت أجنحة هذه الخواطر . فالجناح غالبا لا يحمله إلا طائر يعشق الحياة بحُرية ، ولما كان الطائر مسافراً دائما لارتياد عوالم جديدة ، فالشاعر قد وُفق في أن جعل لخواطره أجنحة ترمز لهذا المعنى ، ثم أعطى لصورته الشعرية وتراً « دراميا » حين جعل هذه الخواطر مقصوصة الجناح ، ويزيد المعنى عمقا سياسياً عندما يكون الفاعل في ضمير الغائب ، شأنه شأن كل الحالات المماثلة التي تحدث في عالمنا حين تُنسب للمجهول . فالصورة في هذه « اللوحة الشعرية » تقف في حالة حركة مستمرة رغم أنها مقصوصة الجناح لا تطير .

وفي الفعل « تهم » يرسم الشاعر حالة « الشروع » وهي الحالة التي تنقلنا إلى الوعي بالصراع المحتدم في النفس ، نفس الإنسان العربي والمسلم الذي قُطعت أجنحته حتى لا يطير إلى « عالم ما اكتحلت بمثله العيون » ، هذا العالم هو « عالم الإسلام » وقيمه النقية التي لو اكتحلت بها العيون لرأت الدنيا على حقيقتها . وعليه فحالة « الشروع » لا تزال مستمرة في « عالم المحسوس » رغم « الإحباط » الذي تعاني منه في « عالم النفس » . وتنتهي اللوحة ببداية مفتوحة: بالحركة المتمثلة في المحاولة المتكررة للطيران ، وبالصوت البشري في استخدام ياء النداء، وبصوت القيود الذي نكاد نسمعه بين السطور :

ولم تزل .. تحاول المحال
يا أيها الرجال
خطاي لم تزل في قيدها اللعين

هكذا تنتهي اللوحة الأولى بالخروج التدريجي من « عالم النفس » إلى « عالم الواقع » حين تتصل بالناس ، وتنادي الرجال لتحاول « المحال » وتزيل عن الخُطى ذلك « القيد اللعين » .

في اللوحة الثانية يتسع مسرح القصيدة فلم نعد نرى عالم النفس الضيق ، ولم يعد هناك تلك المناجاة الخافتة ، وإنما هو في الفضاء الواسع « عالم الليل الحالك البهيم » ولم يقف الشاعر وحيدا هناك ، وإنما نجد « عالم الانسان » و« عالم الطبيعة

« في اتحاد متكامل يعطي اللوحة الشعرية « حركة » و « حياة » و« فئران » وجوّ « النجوم غابت عن سماه » جوّ فيه « وباء » :

الليل حالك بهيم
مواكب القطعان في أرجائه تهيم ..
قد نامت الرعاة
وغابت النجوم عن سماه
وحفلة للدود والفئران والوباء
وقصة للموت والفناء ..
في الحالك البهيم ..
أهكذا .. تفتّح الجحيم .. ؟

إنه جحيم الأرض يرسمها الشاعر قاسم الوزير في هذه اللوحة ، الجحيم المصنوع بيد الانسان لأخيه الانسان . وإذا كانت اللوحة الأولى تميزت بحالة « الشروع » في « الفعل » و « الحركة » فإن هذه اللوحة بحالة « الازدحام » في المكان .. الازدحام الذي يُولد ضيقا نفسانياً « فالليل » حالك بهيم و« القطعان » مواكب كثيرة تملأ المكان . ورغم جو الرهبة المرسوم من خلال الليل البهيم والسماء الخالية من النجوم والحفلة القائمة بالدود والفئران . وهذه مفارقة ساخرة . وقصة الموت والفناء ، برغم كل هذا الجو المشبع المزدحم بالرهبة والمرض والحيوانات الضارة فإننا نجد أن « الرعاة نائمون » (!!) إن الايحاء الرمزي هنا هو « شعور اللامبالاة » .. « الرعاة نائمون » لا يكترثون بما يجري حولهم ولا لقطعانهم المنتشرة في الليل البهيم . الرعاة لا يخافون على « قطعانهم » من فتك « الوباء » ولا من أذى « الفئران » و « الدود » .إننا ندرك في النهاية أن الرعاة قد تركوا القطعان تهيم في جحيم مفتوح ، ومضوا يحلمون .. ! بعيدا عن « الواقع » وبعيداً عن « القطعان » المهددة بالوباء .

وفي اللوحة الثالثة والأخيرة من القصيدة يُبدي قاسم الوزير حساً واعياً بوظيفة الشاعر على أنه « أمين سر الحياة » ووظيفة الشعر على أنه « أقوى صوت معبر عن الحرية » على حد تعبير عبده بدوي .. هذا الوعي يبدو واضحا في المخاطبة المباشرة للشاعر حين يخاطبه بـ « يا » النداء في متاهة « الظلام ».وعندما نتأمل كلمة « الظلام » تتداعى عوالم اللوحة الأولى والثانية ، فنجد أن الشاعر في اللوحة الثالثة يخرج من عالم النفس وعالم الواقع ، وهو وليد لهما ، فالشاعر هنا – وهو رمز للإنسان المكروب – « غريب » و « مسكين » ذو « صوت كسيح » و « لحن جريح » ثم هو أخيراً مُلقى في « ضريح » :

يا غربة الشاعر في متاهة الظلام
لقد أضاعت خطوها الأيام ..
وجرحت جفونها الأحلام
والشاعر المسكين صوته كسيح ..
ولحنه جريح
متى .. متى يغادر الضريح ..؟

في هذه اللوحة تتبين الصلة بين « الجفون » التي جرحتها الأحلام وبين الرعاة « النائمون » في « اللوحة » السابقة . فالصورة الشعرية توحي بأن « الرعاة » قد ناموا كثيرا وناموا طويلا ، وامتلأت أخيلتهم بالأحلام حتى جرّحت لهم الجفون ، إن الرعاة في هذه اللوحة يعودون في صورة « الأيام » التي أضاعت خطوها ، فما دام الشاعر يعيش في « غُربة » « كسيح » « جريح » في ضريح ، فلا شك أن الأيام ليست له ، وإنما هي أيام الرعاة التي تتعثر في الطريق لتنام وتغرق في الأحلام على حين يعيش الشاعر مخنوقا في « ضريح مظلم » أو في متاهة « الظلام » ، وفي كلا الحالين يستوي ظلام الضريح وظلام الفضاء ما دامت هناك « قيود » . إن القصيدة كلها يرمز لصرخة التعبير عن الحرية ، والتعبير عن أمانة الشاعر تجاه الحياة والواقع ، وبالتالي فهو يسأل بجرأة في النهاية « متى .. متى يغادر الضريح » . وهنا يغرس الشاعر في النفس الأمل بالمستقبل ، مؤكدا استمرار الحياة بالإيمان ، فهناك. كما يقول – أناس « لم تزل .. تحاول المحال » .. وهناك « طيور » تحاول أن « تطير » ، ورمز الشاعر في القصيدة يكبر ليتحول إلى رمز الإنسان في رقعة معينة من الأرض محاولا أن يطير ليصنع « عالماً ما اكتحلت بمثله العيون » إلى دنيا الواقع إن شاء الله .

لغة الشاعر :

أما لغة « قاسم الوزير » الشعرية فجزلة وموحية، وإن فيها كما رأينا – من الإبداع والفن مثلما فيها من الوعي المخلص وصدق العاطفة ما يتناسب في كل الأحوال والجو الشعري في القصيدة . إن مضمون القصيدة هو الذي يحدد شكلها ، وإن المضمون أيضا يوحي بنوعية الكلمات التي يستخدمها الشاعر في لغته الشعرية . وقد كان الشاعر موفقا في اختيار كلماته في معظم المواضع باستثناء بعض الكلمات التي رأينا أنها لا تتناسب مع البيئة الشعرية التي أوجدها الشاعر في بعض القصائد ، ففي قصيدة « حكاية » التي تخرج لنا قوية بمطلعها المستوحى من اللغة القرآنية :

« وحملت أيامي الشقية وانتبذت بها مكانا
لا الظن يعرف من مسالكه طريقاً منذ كانا »

ويمضي رائعا إلى أن ينكسر في منتصف القصيدة حين يقول :

فتصفق الأرض التي اهترأت وما زالت تصفق
للفضائح كل ليلة

وكلمة « فضائح » نرى أنها لا تتناسب مع اللغة الشعرية العالية في هذه القصيدة ، وفي قصيدة « حوار مع النفس » نجد الشاعر يكرر كلمة « البلوى » في بيت واحد :

حملتني البلوى وخلفتني
وحدي مع البلوى فأين المفر ؟

وتكرار الكلمة في البيت الواحد غير محمود دائماً في الشعر لأنه قد يضعف موسيقى القصيدة ، واللغة العربية من أغنى اللغات في المترادفات ولا أحسب هذه الحقيقة تغيب عن الشاعر . ولكن لا بد أن أشهد أن هذه القصيدة « حوار مع النفس » واحدة من أجمل قصائد الشاعر التي تستشعر فيها روح « رباعيات الخيام » وتراها تترقرق بين الأبيات :

حدثت نفسي حين جنّ الدجى
وسربل الكون ضياء القمر
ومالت الأنجم في حيرة
لبعضها .. ترقب دنيا البشر
كم نائم .. والسهد خير له !
وساهر أضناه طول السهر
وعائش فوق الثرى خائف
وهانىء تحت الثرى مستقر

ويمضي الشاعر محاكيا « رباعيات الخيام » في الأبيات الثمانية الأولى حتى يقول :

يا نفس ما أنت ومن أنت ؟ لم
تكشف لي الأيام منك الخبر

ثم يختم القصيدة بهذه الأبيات الرائعة التي يتحدث فيها إلى النفس :

مسافر فيك وما لاح لي
مدى ولا استظهرت ما قد ستر
لا رحلتي قد وجدت مُنتهى
ولا ركابي قد سئمن السفر
ولا أنا راض ولا ساخط
ولست مهزوماً ولا منتصر

إذا جاز أن هذه القصيدة محاكاة لرباعيات الخيام فهي بلا شك محاكاة مبدعة ، أو على الأصح هي من وحي الخيام . وفي قصيدة « من أغاني التيه » يستخدم الشاعر كلمة « الفشل » التي لا نعتقد أنها شعرية تليق بالجو الشعري في القصيدة :

ما زلت رغم مرارة الفشل
أمشي لأعرف غاية الدرب

وبالمثل نجده في قصيدة « نحو شروق لا يغرب » التي سبق الحديث عنها ، والتي بشرت بزوال الظلام وإشراق النور الذي لا يعقبه ليل إلى أن قال الشاعر متنبئا :

لكأن غداً أشقر
يوشك أن يولد
ها ..إن الفجر دنا

وأعجب ما أجده في هذه القصيدة - على روعتها - اختيار الشاعر للون الأشقر للغد الذي سيولد ، وكان الأحرى به أن يختار اللون الأخضر لون الحياة والخير والنماء ، والمتعارف عليه بأنه اللون الذي يرمز لعالم الإسلام .. لكننا نلتمس للشاعر العذر ، فلعل طول إقامته بأمريكا جعلته - ربما في عقله الباطن - يتأثر باللون الأشقر (!!) .

وأخيرا فإنني إذا شكوت من شيء في مجموعة قصائد الشاعر التي وقعت في يدي ، فإني أشكو بأني لم أفهم قصيدة واحدة ، وهي بعنوان « العنوان » التي مطلعها :

اللحن و « العودة » والتأريخ والأريج
والذكريات والمكان ليس المكان
وأنت .. كيف ، يا سيدتي ، لا أعرف العنوان

فالقصيدة تثبت أشياء ثم تنكرها مثل قوله « والذكريات والمكان » ثم تبعها « ليس المكان » ثم يتحدث عن سيدة وعن عنوان وخرائط وطلاسم أخرى لم أفهمها على تكرار قراءتي للقصيدة . وأتمنى أن يكون هذا قصوراً في فهمي للقصيدة ، وأعترف بأنني مثل الشاعر مازلت لا أعرف « العنوان » !

ومع ذلك فإن شعر « قاسم الوزير » شعر رافض للواقع ، محارب له ، زاعق فيه ، وهو يرفض الظلام ويدعو إلى النور . لكنه كأي مسلم يعي حقيقة دينه يؤمن بأن الأيدي مهما احتشدت لتسد نافذة الشمس على هذه الدنيا فلن تستطيع ، لأن النور سيخرج من بين أصابعهم كالماء لا يستطيعون له قبضا ، وسيتسلل إلى قلوب العطشى ليملأها حبا وخيراً ورحمة ثم يفيض على باقي الأرض ويملؤها سلماً وعدلا وأمناً .. ولكن لما كان الشاعر أيضا هو الطبيب الذي يجس نبض القلب في هذه الأمة ، فهو أول من يسمع دقاته كبيرة ، فيشعر بالخطر أكثر مما يشعر به غيره . فيهرع لإعلان الحقيقة للناس ، وفي واحدة من لحظات الشعور بالهزيمة هذه نجد الشاعر يعزف بحزن هذه المقطوعة الجميلة :

وأين آمالي عند المساء
في موكب مثل طيوف الغروب
لم يبق منها غير بعض الشكاة
تروي - على العلات - بؤس الوجود
رأيتها عند المساء يا رفاق
سفينة في البحر من دون ريح
ولا شراع .. قد أضاع الشراع
ملاحك اللاهي الذي لا يفيق

وحتى يفيق الملاح اللاهي ليأذن لي القارىء أن أتركه متأملا أمام هذه اللوحة التي رسمتها ريشة الشاعر بمهارة ، أتركها « مُعلقة » أمام القراء بلا تعليق !!